القطار الصاعد الى بغداد

قصة جديدة بقلم محمود عبد الوهاب

عندما صفر القطار صفرته الثانية الحادة المتقطعة، فكت امي عقدة فوطتها وسلمتني الدينار الوحيد الذي تملكه واستبقت لنفسها ثلاثين فلساً اجرة عودتها من المحطة الى البصرة . وتقدم مني صديقي عودة النجار الذي كان واقفاً على انفراد ، تتحسس نظراته التائهة رصيف المحطة، فشد على يدي بعنف وقوة، فغرقت كفي الصغيرة في كفه العريضة الدبقة ، واحتقن وجهه الضخم الملامح وارتجف شاربه الكثيف الاسود المصفر من تكالبه على الدخان ، وتمتم كلمات لم استوعبها؛ بينما كانت عينا امي لا تفارقان وجهي الابيض . وتخضخض القطار فأسرعت الى العربة واخذت مكاني الى جانب رجل كثير الكحة ، انكمش ، بضآلة ، على المقعد الخشبي المنهك ... ثم أطللت برأسي من النافذة أودع الوجهين الحبيبين اللذين سأتركهما ؛ فألفيت امي قد علقت عينها الدامعة على نافذة عربتي بينما كان عودة يبتسم بمرارة .

وسار القطار متثاقلا ، كأنه لا يود ان يفاجيء المودعين بسرعته بعد ركوده المديد في المحطة ، وقد اخذ يقذف من جوفه ، بحنق ، ماء حاراً وبخاراً كثيفاً ابيض، يشكل في مقدمته منظراً مفزعاً يزيده رهبة قعقعته الخشنة المقززة وكان صفيره الحاد يمزق الجو الذي يغطيه ... ولويت رأسي صوب المدينة فانزلق نظري الى برية معتمة تلمع فيها من بعيد مصابيح مستوحشة كئيبة تمد ظلالها المريضة في شوارع البصرة الفوارة بالناس . وحفت وجهي المتطلع نسمة باردة فارتجفت ، بلذة غامضة ، وادخلت رأسي ، بارتعاش ، وتركت النافذة فاغرة تتلاطمها انسام البر المترامي المظلم .

كان جو العربة مليئاً بدخان السجاير الخانق ، وثرثرة الركاب وصراخ الاطفال يملآن نفسي حنقاً ويحبسانها عن الراحة والاسترخاء ، وطقطقة الاقدام العاثرة والركاب الذين تكدسوا في الممر والزحمة المريعة ، كل ذلك بعث في الضيق الشديد ولهذا كنت كثير الحركة،قلقاً، لا استقر في مقعدي.

وحين خفتت الدمدمة قليلا ارتفع ، في العربة المستطيلة ، نحيب امرأة معيدية خطت الخمسين ، ارتمت تحت اقدام المسافرين ، باهمال محزن ، وألقت امامها ، بلا مبالاة ، قفة مطلية بالقار الأسود تكومت فيها اكياس قذرة وملابس عتيقة تنبعث منها رائحة حادة كريهة . ولم تقو المرأة على احتباس عبراتها المختنقة فأفلت منها صرخات يائسة واتين موجع مكتوم بتر احاديث المسافرين ولجم ألسنتهم ... كانت تبكي بحرقة.ابنها الوحيد الشاب الذي مات في مستشفى البصرة الكئيب النائي ، وتتمخط وتمسح اطراف اصابعها بثوبها الأزرق الخشن وهي تنحب بترنيمة محاية مبكية وتضرب بيدها ركبتها اليسرى... ثم ارتفعت ، واهنة ، عبرات حيية مختنقة مجهولة ولما رفعت رأسي قليلا تبينت ان امرأة اخرى كانت جالسة ، غير بعيد عني ، اسندت رأسها الرخي المحزون الى نافذة مغلقة وقد ارسلت عينها العليلة خطين من الدموع الصامتة الصادقة ؛ إذ وجدت في بكاء هذه المعيدية واحزانها متنفساً لآلامها المغلولة ، فقد اطبق قلبها العجوز على آلام غائرة دفينة ...

تأملت هذه المرأة.وجهها المنكمش المتغضن ، وعينيها الصغيرتين المحمرتين، ويدها المرتجفة المعروقة ، وصوتها ، صوتها الباكي أثار في قلبي الرحمة وقفز بي الى احزان سلسلة من الامهات اللواتي عشن في صراع متخاذل بين الحاجة وتحقيق حياة فضلى لأبنائهن !

وتذكرت ، ايضاً ، امي ... عينها الكابية ورقبتها الهزيلة وفمها الذابل المتجعد . واعتصرني شيء من الالم والشفقة عندما تذكرت انني تركتها عند نسيبي واختي الحريصة على زوجها ، تركتها ، في بيتهم الضيق الرطب ، لتعلك لقمتها وتعمل بجهد وتعنى بالمطبخ والاطفال، ولتضيق على نفسها فترسل الي ما تستطيع تحصيله وجمعه شهرياً لأتمكن من مواصلة الدراسة العالية ؛ وتمنيت ان اعود اليها ... تمنيت ان القي برأسي على صدرها وابكي متخاذلاً ... ابكي ؟ وحنقت على نفسي ، وتمثل لي صديقي عودة الذي كان يشفق علي بمرارة تؤذيني ؛ اذ انني لا ابعث في نفسه الاطمئنان على انني رجل عراك في هذه الدنيا العريضة ، فأنا ما زلت طالباً طرياً قليل التجربة ، مع انه يعلم تماماً انني دخلت الحياة منذ وفاة والدي قبل عشر سنين ومضغني العمل الشاق ، على الرغم من مواصلة دراستي الاعدادية في المدارس المسائية ... وتمنيت ان استطيع ، في يوم من الايام، ان ارفع عن نفسي هذه التهمة واثبت لصديقي عودة انني لا اقل عنه حدة وحماسة ، وانني املك مثله كفاً عريضة خشنة . ولكن أنى لي ذلك ؟ !

وتمنيت ، في هذه المرة ، لو انني اكتفيت بالشهادة الاعدادية وعملي على ارصفة الميناء .. وعندئذ ، عندئذ قفزت الى ذهني صور باهتة لكنها قاسية ومتعبة ابداً ... رافعات كهربائية تنقل بضائع آتية من الهند وامريكا وانكلترا . حمالون مجهدون تقصم ظهورهم الصناديق الثقيلة وبالات القطن الكبيرة وترجف اقدامهم الحافية التي تحاول ، عبثاً ، ان تثبت على رصيف المحطة . أيد ممروقة مصبوغة بالزيت الثخين الاسود تدحرج البراميل في جهد وعنف ، بواخر سامقة متسمرة ، بوقار مرعب ، في مياه شط العرب . غرباء يخطون ببرود ممقوت على ظهور السفن ويمضغون الغايون وينفثون الدخان بتراخ في صمت الميناء وينظرون الينا بدهشة واستغراب كمن يتفحص حشرة نادرة دفنت رأسها في قشر موزة !. الحمال الجائع ، الذي حاول ان يسرق ، فلف على بطنه، مرتين، قطعة قماش ملونة. الهراوة الثقيلة التي هوت على رأسه بشدة... آخ... آخ... زحفه بخوف وتوسل وحذر بين عشرات الارجل المغروزة، وبين الاحذية اللامعة القاسية في وقفتها ... زحفه ... كالكلب الجريح ... كالكلب ... كالكلب ... كالكلب ...

كان القطار يبتلع الارض بنهم، وصفيره المزعج ينطلق بحمية وحماس فيتفتت في اجواز الفضاء الخاوي ... بيض . خبز . بيض . جيكاير . جيكاير ... هدأ الركاب الآن ، وخمدت قرقعة العربات ، واستلقى القطار على القضبان الحديد يلم انفاسه المتطايرة ، فاندلقت اصوات الباعة ، الى العربة ، باستعجال واقتضاب كنقيق الضفادع ؛ بينما كان بعض الركاب يدمدمون وهم يغالبون النعاس وكانت المرأة الثكلى قد انبطحت على ارض العربة وراحت في اغفاءة كئيبة . ونشطت الاقدام مرة اخرى ، وفي باحة المحطة كان المدير البدين يحدث ، بصوت اجش ، عاملا يحمل فانوساً ملوناً ، ثم قهقه ، في احشاء الظلام ، قهقهة عالية وادار ظهره ودب محدودباً الى قبو المحطة المظلم فتلاشى جسمه الضخم في عتمة القبو الموحش الذي يضيئه ذماء مصباح خامل صغير .

وفجأة اصطكت وصوصة الجنادب والحشرات تصوت بعصبية وحدة كأنها تريد ان تمحو من الجو الغافي صورة مدير المحطة والفانوس الملون والعامل المكدود . وصفر القطار صفرة موحشة ابتلعتهـــا العتمة السميكة ، وتحرك ببطء وزحف ثم ركض نشيطاً على قضبان الحديد البـــارد موغلاً في قلب الصحراء متمما رحلته الشاقة الى بغداد ... وفتح باب العربة الداخلي ودلف قاطع التذاكر الأصلع ، واندفعت ، بخفة ، حفنة من الرمل النـــاعم فأغلق قاطع التذاكر عينيه ، بحركة لا ارادية ، واسرع الشرطي الذي يتبعه فسد الباب ، بمقاومة غير عنيفة ، وتبع الموظف عائماً في جلبة العربة بيندقيته العتيقة هادئاً صامتاً :

— بطاقتك .

— تفضل .

وألم احد الركاب في ايقاظ صديقه الذي تمدد على الخشبة المرتفعة الضيقة المكدسة بالحقائب والصناديق الحديد ، فاستيقظ الرجل بجهـــد ، وفتح عينيه بضجر وغباء ، ثم فركهما ومد نظره حوله باستغراب ودس يده في جيبـــه واخرج بطاقة السفر وسلمها الى صديقه وعاد مستعجلاً الى نومته . ولمع في في العربـــة صوت بغدادي مكرش يهذر بسرعة وتدفق ورعونة . كان فمه المنتفخ يلوك لقمة كبيرة وهو لا يني عن ضوضائه وينظر بين فترة وفترة ، الى شابة ذات وجه مغبر قد سقط رأسها الناعس بين كتفيها .

كان ينظر اليها بشهوة وحشية وهو يحدث صاحبه بسرعة ويأكل بشراهـــة ويضحك باقتضاب ، ومن دون سبب ... ثم قدم لصاحبه شيئاً من عشائه إلا ان اضراسه الثقيلة خيطت اللقمة دون تمهل . حاول ان يتكلم بعربية فصيحة إلا انها جاءت ، غالباً ، مرقمة مضحكة التراكيب والمفردات . وتأنى في كلامه بتكلف ظاهر السذاجة وهو يكشف ، بين لحظة واخرى ، وبصورة يتكلف في تعميتها ، عن جانب من حيـــاته الرخيصة العبث، متظاهراً بعدم اكتراثه للنساء ! كان سائقاً اجيراً لسيارة لوري ثقيلة تعمل في تهريب البضائع عن طريق الصحراء ها . ها . سيدي رجل كريم . يبتسم لي كثيراً . ويدعوني الى مشاركته الغداء . ها . ها . ابنته الصغـــيرة ؛ وهز رأسه بحركة كاذبة ؛ تعودت ان تدعوني .. عمو .. عمو ! وصفر القطار باستمرار عنيد ، وبان من بعيـــد مصباح احمر خافت ، واعتدل في سيره ثم ابطأ ووقف عند محطة حرساء إلا من نباح كلب جائع كان ينبعث من الكوخ المنفرد المتهشم ... وارتفعت ، في داخل العربة عدة طرقات شديدة على زجاج الباب ثم صوت عاجز مبحوح :

— فك الباب .....

وأجاب رجل في داخل العربة :

— رح من الباب الثاني . هذا الباب وراءه اغراض .

كان رجلاً هزيلا طويلا في المخاءة من الخلف؛ وقد شد رأسه بمنديل اخضر وأطل وجهه النحيل وخداه الغائران على الحياة بوهن وتخاذل . كان يتكلم بصعوبة ومشقة ظاهرة ويتنفس بجهد بينما كان صدره يصفر صفيراً واضحاً . وقد رجع الى مكانه والقى بنفسه على الفراش المشدود المكوم في الزاوية ثم مسح بيده رأس طفلته النائمـــة ، ومد رجله ، وتأفف ، وذبلت نظراته ، وتحركت ببطء امرأته المتكئة على جانب الفراش وتنهدت وهي تضم ذيل عباءتها الكالحة اليها ثم راحت من جديد في نومها . كان موظفاً منقولاً الى الديوانية ، خلت حياته من بارقة امل وباتت باهتة رتيبة متكررة مألوفة ، عمل اكثر من خمس وعشرين سنة موظفاً ضئيل الراتب ، لا ينتظر في حياته جديداً الا الموت ! انه يعيش بلا امل ، ضجراً متبرماً ...

آه .. ما اضيق هذا المكان ! ما اتعس هؤلاء ! اني اكره هؤلاء باشفاق ! ذلك السائق الثرثار الذي ينعم بحياته التافهة الجافة، وهذا الموظف المكدود ! آه . ليت صديقي عودة يراني الآن وأنا أحس هذه العواطف المتضاربة . لقد بدأت اشعر انني اصبحت رجـــلا ! اكره الخمول والجمود والافواه المليئة بالثرثرة ، وفرحت كثيراً عندما احسست بهذه المشاعر الغريبة. اين صديقي عودة ؟ اريد ان احدثه ، بلا انقطاع ، عن السائـق المكرش الذي يكد كثور معصوب . وهـــذا الموظف الهزيل !

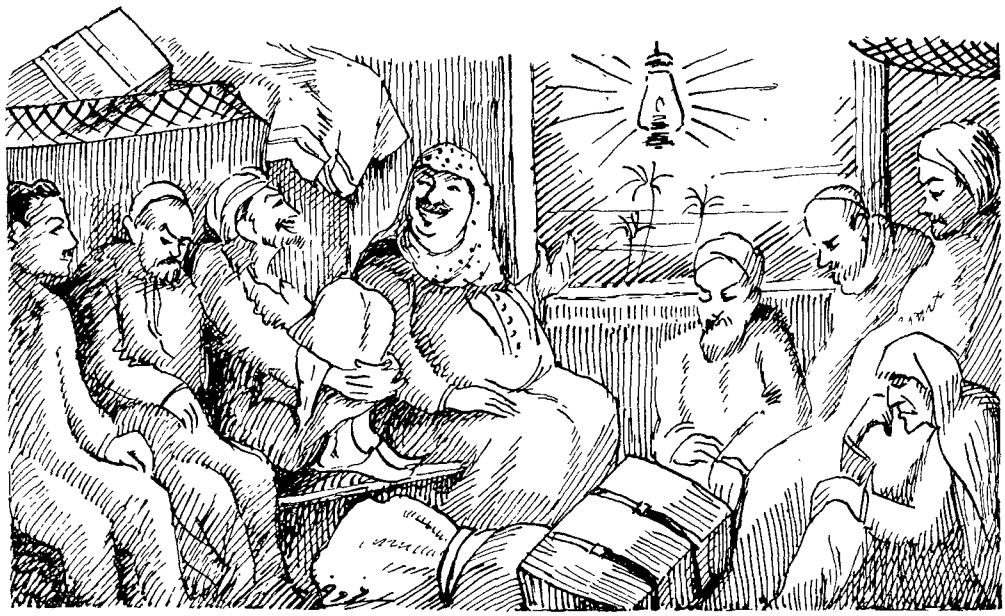

وتسمرت عيناي في المصبـــاح المحتضر الذي تراكم عليه الغبار وتقاذفت عليه بنشـــاط وخفـــة الحشرات الهائجـــة المتعاركة المتزاحمة، واحسست ان القطار بدأ يتمايل حتى كاد ان يسقط وتمثلت لي صور متلاطمة متداخلة ورفعت يدي الى رأسي الثقيل وعيني المجهدتين . كان القطار يقطع هذه الصحراء، دون ملل وغير مبال بالعتمة والمسافة وعواء الذئاب . وسقط رأسي بين كتفي وعفوت . وكنت بين حين وآخر ، افتح عيني ، بجهـــد ، لأرى رؤوساً متهشمة مطرقة متكورة متراقصة ومصباحاً مرتعشاً قد ظهرت الى جانبه القطعة الخشبية المكتوب عليها بالعربية والانكليزية (للجلوس ٦٤) . وأفقت اخيراً، وألفيت الشمس تنشر ضوءها على الارض المقفرة بسماحة ، والعربة تكاد تكون خالية . نزلت المعيدية المكلومة في أور إلا انني اراها وكأنها لا تزال في ضجعتها كومة حزينة . الموظف الذابل يندس الآن مغموراً في تيار الناس ؛ هو وزوجته وطفلته . اما البغدادي فلما يزل يثرثر إلا انه بدأ يشعر بالملل والتعب. ولما رأى انصراف الآخرين عنه فانه لم يعد يهذر باخلاص وحماسة كما كان .

القطار يركض بارجله الكثيرة . لا يقف في المحطات الصغيرة المتناثرة على جانبي السكة الا دقائق قليلة وهو يشق طريقه ، الآن ، في ارض خضراء

السجين

أصوات : يا ظلامْ يا عبير الأوهامْ
يا رفيف الأحلامْ يا طـــلامْ
دلنا على رفيق صبانا دلنا ولا تشردْ خطانا
ما لنا في هذه الدنيا سواه
ما له في هذه الدنيا سوانا
نحن رؤاهْ نحن مناهْ

صوت : هو في الزندانْ . يسكب الألحانْ
يا صبـــايا الحنين لا تقولي سجـــين
إنه مازال في فجر صباه تتمادى مقلتـــاه
وهو زاهي الجبين هل ترى تسمعين؟

السجين : ابتسم يا ظـلامْ يا رفيف الأحلامْ
يارفيق الآلامْ ياظلام
واهاني الصحبْ ذا سجني رحبْ
فابسم يا حبْ وافرح يا قلبْ

أصوات: ياشاعر الآلام عدنا على جناح الخيال
وبجاهل الآفاق ردنا نشيع روح الجمال

السجين: من اى غيب عدت يا ارواحْ

اصوات : من عالم فتكت به الاتراحْ
تتصارع الآهات في جنباته كرهاً ويضحك ذلك السفاحْ
ويطل من علیائه متسربلاً بالسخر

السجين: سوف تبددالأشباحْ
ويفر حمار الشعوب مولولاً فخموره كفرت بها الاقداح
عودي الى الدنيا ولا تتنابي تهوي القصور ويسلم المفتاح

أصوات: نحن ارواحك الحسانْ نهبط الارض كل آنْ
سوف نقضي على الهوانْ
نحن في أول الطريـقْ نتغـــافى ونستفيـق
خيالك المشرق مرتعنا وعنك المطلق مربعنـا
نبدد الجهل والضلالْ
وننشر الخير والجمالْ

مصطفى محمود
من اسرة الجيل الملهم

صوت: ايها العقل السجينْ
زادك السجن انطلاقْ
فتحـــديت السنين
وتصورت الرفـــاقا
عـــائدينْ باتحـــادْ
من ليالي الجهادْ هاتفينْ :

أصوات: ابتسم ياظلامْ
يا رفيـــق الآلامْ
يانبيّ الآلامْ ياظلام..

منخفضة منتشرة باتساع رحب والخراف الوديعة السائمة ترعى باطمئنان وتلوك الحشيش الاخضر الندي بتأن مألوف وعندما يصفر القطار كانت تفزع هاربة من صراخه المدوي . الاطفـــال يتصببون باجسادهم الصغيرة شبه العارية ملوحين باكفهم ، ويمرح برىء ، للركاب ، فرحين بهـــذا الحيوان النشيط المنزلق بين اكواخهم المهترئة الهابطة ، وقرعة العربات المتدافعة تندلق في رؤوسهم فيحشون بسرعة آذانهم باصابعهم ليدفعوا بها هـــذه الضجة المدوحة ووجوههم السمر الملفحة بحرارة الشمس تحتضن ابتسامة ساذجة مألوفة .

كانت ضربات القطار الرتيبة على السكة تعلن انتهاء الرحلة ، هذه بغداد . بغداد ! الارض الواسعة المنخفضة الخضراء . المآذن التي تلوح من بعيـــد . المحطة المتربعة باستسلام تبدو في مقدمة المدينة الكبيرة كأنيـــا في استقبال المسافرين !

كان القطار لا يزال يرسل صفيره المتتالي في الجو ، الا انه بدأ يتراخى في سيره قليلاً ويبطىء ، ثم زحف بهدوء ووقف متعباً محهد الانفاس لاهثاً . واندفع الحمالون وسائقو السيارات الى عربات القطـــار وارتفعت ايديهم ، متشابكة ، لتكسب الركاب ، والتقت فوجدت السائق الثرثار ينفض عـــن بدلته الغبار وقد اكسبه وجهه المحمر المتضرج سمة الغي البطين . كان الحمالون يتلقفون ، من ايادي الركاب ، حقائبهم وصناديقهم ، وسائقو الســـيارات يجرون الركاب جراً الى سياراتهم المنتظرة في خارج المحطة ، وقد راحوا في حماسهم يغرون المسافرين باسنانهم الحلو الطويل الممارسة . احدث انظر في عمق الى هؤلاء الاحياء ، وشعرت في نفسي نشاطاً ذاتياً متدفقاً اسقيته من حماسة الحمالين وسائقي السيارات ونشاط المحطة العنيف .

ولما رفعت حقيبتي شعرت كأني انتفخت ، وان ساعدي الطري بدأ يضخم ويشتد ويقوى وان عضلات متينة ، متينة جداً ، ومصولة جداً بدأت تظهر فيه وتلتف وتلتصق وتتسابك وتمثل لي امي بفوطتها ضاحكة ، كما لو انها كانت تضحك ، كعادتها ، تحت اقدام سلم بيتنا العتيق ، وان صديقي عودة قد امتلأت نفسه ايماناً بي ، ودفعت الحقيبه الى الامام واحتاحي نصف وبهوسة في ظهري عندما اندسست بين تلك الكتل المتصارعة المتراحمة في الممر الضيق ، ولمـــا اندفعت بقوة وشققت طريقي الى خارج المحطة أحسست ان الارض بدأت تتسع لخطواتي ، وان شيئاً ما ، في داخلي ، داهماً عريباً جعلني ابدو اكثر ايماناً ، فوضعت اقدامي في الطريق العريضة وأخذت اسير متبعاً ذلك الانسان القوي الضخم المتين العضلات .

البصرة **محمود عبد الوهـاب**